امامنا من جبل الى جبل رأينا ان طلقاتهم تخفُّ قليلًا قليلًا فما وصلنا الى محلهم حتى رأيناه بلقعاً ليس فيهِ غير بعض اسلحة محطمة ألقاها البوير عنهم قبل فرارهم ولم نرَ لهم اثرًا في الجبال الموازية لنا ولكنهم خسروا كثيرين منهم. ألا ترى هذه الوهدة المنطى اكثرها بالحجارة الضخمة والتراب ؟ هناك دفنوا قتلاهم

— هلمَّ معي فاني ارغب في زيارة القبور

— نعم ولكن تعال اولًا وانظر قبور جنودنا

فذهبنا الى محل مُحاط باسلاك من الحديد وفي الوسط ثلاثة قبور كبار والى جانبها قبور صغار متلاصقة مصفوفة كالعسكر اوان الاستعراض

قال : « فالثلاثة القبور الكبار هي قبور الجنود فانهم كانوا يجمعون جثثهم في حفرةٍ واحدة ويهيلون عليهم التراب واماَّ الرموس الصغار فهي رموس الضباط »

فجثوت حينئذٍ راكعًا وصليت لراحة تلك الانفس صلاة وجيزة واماَّ رفيقي فانهُ وقف وقفة الجندي بلا سلاح ورفع قبعتهُ واطرق في الارض

ثم بدون لفظ كلمة ذهبنا الى قبور البوير فاستدللنا من قلَّة هندستها انَّها حُفرت على عجل. وهناك كذلك رفع الضابط الانكليزي قبعتهُ وقدمتُ لله صلاة حارَّة لاجل اولئك الابطال الراقدين هناك وقفلنا راجعين الى حيث اتينا

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعيّ (تابع)

الفصل الثامن

خيبة الآمال

كانت الشمس كشفت جلبابها اذ دخلت الأمة العجوز دوروتيا مخدع سيّدتها وهي تطأ الارض همساً ثم عكمت السجوف وفتحت النوافذ فارسلت الغزالة بانوارهـا واضاءت المكان فسطعت آنية الحجرة وشمعٌ فولاذ دمشق وبلّور صيداء وآبنوس الهند

وكانت يهوديت غائصةً في بحر النوم في سرير بديع النقش تستر وجهها كلّةٌ

من الانسجة الرقيقة الشفّافة . فوقفت دوروتيا امامها شاخصةً اليها وهي تقول في نفسها : « يا ليت سيّدتي تنام نوماً غَرِقاً الى ساعة رجوع والدها فتقتصد بذلك على نفسها آلاماً ودموعاً مرّةً » . ثم همّت بالخروج واذا بالفتاة تنفّست الصعداء ورأرأت بتَوْأمتَيها فرأت عبدتها الامينة فقالت :

ما الخبر يا عزيزتي ؟ . . . ليس لديكِ من خبر ؟ . . . اوّاه ما اشقى حالي وانا في هذا الانتظار المُمِضّ

قالت هذا وعادت الى بكائها . امّا دوروتيا فلم تدرِ كيف تعزّي سيّدتها بعد ان منّتها مرارًا بالفرج القريب . لكنّها خرجت اسيفة تستدعي الاماء الموكولات بلبسها وهندامها فلمّا دخلنَ تجلّدت يهوديت واخفت دموعها عنهنّ ثم سلّمت نفسها الى ايديهنّ . فكنت ترى هذه تسخّن الماء على كانون لتغسل راسها وتلك تهيّئ الغسول واخرى تدوك الطيوب بالصلاءة او تحمي الحديد لتكوي خمارها وملاءتها . وبينما كانت الاماء الواحدة بعد الاخرى تقوم بمهامّ مهنتها كانت يهوديت جالسةً على ديوان وهي طوع حركاتهنّ لكنّ الهواجس كانت تزدحم عليها وتتناوب في عقلها كأنّها السهام تتعاورها كيف لا وانّها كانت منذ شهر ونيّفٍ تعدُّ الساعات والدقائق فتحيي آمالها برجوع والدها . وكانت قضت في جبيل شهرًا تامًّا لتسلّي همومها وتخمد لظى قلبها الّا ان الشهر كان قد تفرّط كالسمط ولم يَلُح لها بارقة أمل . . . ثم عادت الى بيروت لعلّها تستقبل قريباً اباها وهي تعلم ان حبَّهُ الوالدي يدفعهُ الى العود السريع الى دارهِ لكنّ رجاءها بقي خائباً . . . وها قد صار منتصف شهر آذار ولم تدرِ شيئاً من احوال والدها فانهُ لم يقفل . راجعاً بل ولم يرسل الى ابنتهِ رسالة تطمّن بالها

وربّما كانت تصعد الى سطح دارها محدقةً بنظرها ساعات نحو البحر لعلّها ترى سفينةً تُقبل من جهة الجنوب وتأتيها بخبر من ابيها . . . الّا انّ آمالها خابت من جهة البحر كما عيل صبرُها من جهة البرّ

وكانت بخلاف ذلك فرقٌ من صعاليك اليهود تتوالى فارّةً من امام الرومان ملتجئةً الى بيروت وضواحيها لتسدّ جوعها وتفرخ روعها . وكان كثيرون من هؤلاء الهاربين ضربوا خيامهم حول المدينة يعيشون بالصدقات او يترزّقون ببعض الصنائع الخسيسة . وكانت يهوديت تتردّد عليهم لتخفّف اوجاعهم وتحسن اليهم بيد سخيّة الّا

انَّها كانت اذا سألتهم عن ابيها لم يجيبوا جواباً وينكرون انَّهم راوهُ او علموا بخبره

تلك كانت افكار يهوديت في ذلك الصباح عند قيامها من نومها بينما كان حشمها يتسارعون الى خدمتها ويسعون بحليها

ولمَّا نجز العمل استدعت اثنين من عبيدها وارسلتهما ليتجسَّسا لها الاخبار عن قومها فعادا بعد ساعةٍ من الزمن واخبراها بما سمعا اذ مرَّا عند ثكنة العسكر فكان الجند مجتمعين يتكلَّمون عن الحرب فقال الواحد منهم: « بئس حال اليهود في اورشليم وهم اعداء نفوسهم فانَّهم منقسمون الى احزاب متباينة يأكل بعضهم بعضاً كالذئاب. ولا حاجة الى طيطوس ان يحاربهم فانَّهم اذا داموا مدَّةً على هذه الحالة سقطت المدينة بلا حرب بين يديهِ كغنيمة باردة »

*

وبينا العبدان يرويان ما سمعا اذ طرق سلوانوس باب الغرفة فدخل على سيِّدتهِ كاسف الوجه قلق البال وقال:

« لهفي على سيِّدي ! انَّ اورشليم تتَّقد اضطراماً والحرب قائمة على ساق بين اهلها ! »

فالتُمع لونُ يهوديت وعلا وجهها الاصفرار واحسَّت باحشائها تتمزَّق لهذا الكلام. ثم سألت سلوانوس بصوت يرتجف:

ومن بلَّغكَ هذه الاخبار ؟

— هو رجل ورد في هذا الصباح من يافا وقد خرج من اورشليم منذ اسبوعين

— هلمَّ بهِ للحال

فدخل سلوانس بعد برهةٍ بشيخٍ ذي اسمال خلقة وسخة منتعل بحذاء متقطِّع وقد تقحَّل جلدُهُ. فلمَّا رأتهُ يهوديت اقشعرَّ بدنها ثمَّ حدجتهُ بالنظر وسألتهُ ما اسمهُ

قال: اسمي يوناثان

— واتيتَ من . . .

— من اورشليم. برحتُها منذ خمسة عشر يوماً وقد فررتُ هارباً فقطعت ركضاً المسافة بينها وبين يافا ومنها ركبت السفينة « الخطَّاف » التي اوصلتني اليوم مرفأ بيروت

— وهل تعرف التاجر صمويل ؟

— لست اعرفهُ

فوقع هذا الجواب كضربة سيف على قلب يهوديت فسكنت حيناً ثمَّ قالت: وماذا يجري في اورشليم

« كيف اصف ما يجري فيها ومجرَّد الفكر في احوالها يهدُّ رُكني ويطير الرقاد عن عيني. اعلمي أيتها السيّدة انهُ لم يحلّ بأمّتنا منذ بدء تاريخها حتى اليوم شدائد كالتي تدهمها الآن. فانَّ هذه البلايا قد أنست فتوح نبوكدنصّر لمَّا احرق قدس الأقداس وجلا الشعب الى بابل. وكأنَّ لعنة يسوع الناصريّ التي لعن بها المدينة المقدَّسة قبل اربعين سنة قد حلَّت باهلها واذاقتهم الموت الوانًا »

قال الشيخ هذا وسكت لسانهُ ونطقت عيونهُ حتى اخضلَّت لحيتهُ بالدموع وكان يلتوي في غضون ذلك ويعقد اصابعهُ متلهّفاً يائساً فلمَّا سكن جأشهُ اردف قائلًا :

انَّ في اورشليم اليوم ثلاثة جيوش انقضَّت عليها اقضاض النسور على فريستها حتى قبل ان يحاصرها الرومان. فترينَ في وسط الهيكل العازر بن سمعان وذويه وهم قد تحصَّنوا هناك يدنسون قدس الأقداس بارجاسهم ويستبيحون تقاديم الربّ ويرمون اخوتهم بالنبال من اجنحة الهيكل حيث كان يسهر سابقاً ملائكة إله السلام. وفي ساحات الهيكل وسطوحهِ الدانية قد نصب حنَّا من جسقالة (جشّ) كبوشهُ ومجانيقهُ ويصوّب اصحابُهُ سهامهم الى المقدس لا يهابون غضب ربّ الجنود. امَّا المدينة فقد صارت طعمةً لسمعان جيوراس وعصبتـهِ فيعملون فيها السيف والنار ولم يُسمع في الشوارع والازقَّة غير عويل النسـاء وصراخ الصبيان وجلبة المحاربين... لقد قُضي الامر وعمَّا قليـل لا يبقى من اورشليم غير اسمها مع آثار خرابها... ونحن بني العهد سوف نتيه في اقاصي المعمور وعلى جبهتنا آية اللعنة والقنوط »

قال هذا وعاد الى بكائهِ وزفراتهِ... امَّا يهوديت فعمل فيها قول الشيخ فاغرورقت عيناها بالدموع ووكفت معهُ عبراتها برهةً ثم جثت على ركبتيها وتلت بقلبٍ انعشهُ الايمان « مزمور الرجاء ». فما سمع المسكين اوَّل آياتهِ حتى صلَّى معها وامتزجت صلاة ابنة البطارقة والفقير الصعلوك اللذين تساويا بالتواضع والايمان

وكانت الصلاة لقلبهما كرهم لطَّف اوجاعهما واعاد لهما الرجاء الذي لاح على محيَّاهما وقضت يهوديت ذاك النهار تتقسَّمها الهموم وتتنازعها الهواجس الَّا انَّ ثقتهـا

بالله كانت تسند قواها . وفي غد ذاك النهار اتاها سحراً ساعٍ كان البحر من يافا في مركب وجهتهُ صيداء فنزل فيها وقصد بيروت برًّا . وكان معهُ كتاب من صموئيل الى ابنتهِ يهوديت

فلمَّا استلمتهُ الفتاة من يدهِ وجب قلبها وترقرق الدمع في عينها فرحاً فاسرعت الى فضّ ختمه ومطالعة مضمونهِ . فاذا تاريخهُ ٢٧ شباط يقول فيهِ صموئيل « انهُ لم ينجز اشغالهُ بعد في اورشليم ولم يتقاضَ ديونهُ فلا يمكنهُ ان يبرح المدينة المقدَّسة قبل العشرين من اذار بعد الفصح . ثم انهُ في حاضرة اليهوديَّة مطمئن البال لا خوف عليهِ من اهل الشَّغَب »

فلمَّا قرأت يهوديت هذه الاسطر التي كانت تأمل منها خبر نجاة ابيها تراكمت عليها الاحزان وتوزَّعتها الاشجان فرأت نفسها كيتيمةٍ لم يبقَ لها في الدنيا صديق ولا سنَد . واخذت تلعن المال الذي اعمى حبُّهُ قلب ابيها فهوَّرهُ في تهلكة لا مناص لهُ منها . وكانت تتعجَّب كيف اهل اورشليم لم يدروا بعد بما يتهدَّدهم من المخاطر وكيف يجهلون ان جيوش الرومان كادت تبلغ ابواب المدينة المقدَّسة

*

وفي عصر ذلك اليوم كنتَ ترى بيروت في حركة غير مألوفة . فكان الاهلون يسيرون الى ساحة البلدة فيتناقلون خبرًا شاع منذ ثلاث ساعات جاء بهِ البريد وهو ان طيطس بلغ اورشليم قبل ان يدري اليهود بقدومهِ فاحدق الرومان بالمدينة وضغطوها بحلقةٍ من حديد . وكان بدء الحصار في سلخ شهر شباط ثاني يوم بعد تاريخ مكتوب صموئيل . وكان طيطس ساعة وصولهِ نصب آلات الحرب فوق جبل الزيتون

فوقع هذا الخبر في قلوب اهل بيروت وقعاً مختلفاً . فكان الرومان والسوريُّون يدعون لطيطس بالظفر ويتفاءلون بالفتح القريب . امَّا اليهود فانقضَّ عليهم الخبر كصاعقة فاقفلوا حوانيتهم وتواروا عن اعين القوم لئلَّا تحدث فتنةٌ بسببهم فيذهبوا ضحيَّة الثائرين كما قُتل منهم قبل ذلك العهد باربع سنوات عشرة آلاف نفس بدمشق

وكان حاكم المدينة امر فرقة من الرمَّاحة الراكبين بان يقتسموا بينهم حارة اليهود ليمنعوا عن اهلها كلَّ سوء . فاثار منظرهم الخوف والرعبة بين بني اسرائيل . ولمحتهم يهوديت من نافذة دارها وكانت تجهل الخبر الشائع في المدينة فارتجفت فرائصها وسألت

ما الامر فطمّن بالها الخدم قائلين: « ليس هـذا شيئاً انّما الجنود يتبادلون الاحياء كمألوف عادتهم »

فسكتت ثم لحت بعد قليل بعض اشارات من عبيدها كأنهم يتغامزون ويهمس بعضهم الى بعض فاحسّت انّهم يريدون ان يخفوا عنها خبر فاجعة عظيمة فما تمالكت ان صرخت: « قد مات . . . أليس الامر كذلك . . . »

قالت هذا ولم تدع للحضور وقتاً للجواب فسقطت مغشيّاً عليهـا . فتوارد العبيد واجتمعوا حولها وحملوها الى غرفة منامها فأضجعوها على فراشها وانعشوا قواها ببعض المنعشات ففتحت عيونها بعد قليل وادارت الحاظها حولها . ثم اجهشت بالبكاء.

امّا امتها دوروتيا التي كانت بقربها فانّها ضمّتها الى صدرها قائلةً: « كلّا كلّا يا حشاشة القلب . . . لم يمت والدكِ . . . انهُ حيّ وسترينهُ عمّا قليـل . وما الخبر الذي يتناقلهُ الناس سوى خبر حصار الرومان لاورشليم . ولعلّهُ خبر مُبتسر وإن صحّ فليست المدينة على شفا الخراب ويمكنها الدفاع زمناً طويلاً . فلا يحسن بكِ ان تتوهمي الاوهام الكاذبة وما ادراك ان يكون ابوكِ علم بقرب الرومان فخرج من المدينة قبل الحصار »

وكانت يهوديت تسمع كلام أمّتها وتحاول احياء رجائها الّا انّ الخوف على حياة والدها غلب عليها فجعلت تذرف الدموع وهي تقول: كلّا كلّا انّهُ لم يبقَ املٌ لخلاص المدينة . . . والويل لابي ان لم يخرج منها . . . ليت شعري كم يبرّح بهِ العذاب . . . وانا لا اعود انظر الى وجههِ . . .

وفيما هي تفوهُ بهذه الالفاظ اذ دخل الطبيب كتازياس وكانت دوروتيا اسرعت فارسلت تستدعيهِ . وكان كتازياس يعالج بيت صموئيل منـذ زمن طويل ويحبُّ يهوديت محبّة الاب لابنتهِ . فلمّا رأى الفتاة اشربها دواء مسكّناً وجلس عند فراشها ينتظر مفعول الدواء . فما مرّ عليهِ نصف الساعة حتى كلّت اجفانها فنامت نوماً قلقاً كنوم المحموم الذي يتململ على فراشهِ فلا يذوق الراحة الّا انهُ يسهو عمّا يجري امامهُ

ثم قام كتازياس وقال لدوروتيا: لا تدَعوا الفتاة وحدها فان الليلة القادمة تكون سيّئةً

وصدق الطبيب بما قال فانّ حال المريضة كانت تنذر بالاهوال . . . فانّ يهوديت كانت ترى في نومها الاحلام المريعة فتارةً تردّ بيدها عدوًّا غير منظور وحيناً تصرخ:

« لا تُلحقوا اذًى بابي ». وكانت تحاول في بعض الاحيان ان تقوم من فراشها وتتخلّص من ايدي العبيد الذين يمرّضونها فتقول : ألا ترون ابي في العذاب ما لكم تمنعوني عن مساعدتهِ وانقاذهِ ». وبقيت كذلك الى منتصف الليل حيث خمدت حرارة الحمّى قليلًا عنها ثم تركتها عند الصباح فسقطت قواها وبقيت لا حراك بها . . . وكان الخطر قد زال الّا انّ عبيدها كانوا يخافون جزعها عند يقظتها (ستأتي البقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

LITTÉRATURE ARABE

par Cl. Huart, *Paris, Armand Colin*, 1902 IX - 470

فنون الادب عند العرب

ان تقدّم الدروس العربيّة في الاصقاع الاوربيّة حمل كثيرين من المستشرقين على وضع كتبٍ في لغات شتى يبحثون فيها عن تاريخ آداب العرب منذ ايّام الجاهليّة الى عهدنا اشتهر منهم همّر پرغشتال (Hammer-Purgstall) في النمسا وفيليب دي بردي (F. de Bardi) في ايطالية وكركاس (V. Guirgass) في روسيّة واربوثنوت (Arbuthnot) في انكلترّة وموخرًا كرل بروكلمان (C. Brockelmann) في المانية. فلم يرض المستشرق الشهير كليمان هوارت ان تحرَم فرنسة كتابًا يفيد ابناءها علمًا تحتويهِ اللغة العربيّة من الكنوز الادبيّة ويوقفهم على تاريخ ائمّة كتبتها في كل عصر وقد ساعدت المؤلف على هذا العمل الجليل دروسهُ السابقة واسفارهُ المتعدّدة وصحبتهُ لعلماء الشرق فجاء كتابهُ سِفرًا نفيسًا جليل الفائدة منسجم الانشاء طليّ العبارة لا يستغني عنهُ اديب

على ان كثرة ما يقتضيهِ كتاب مثل هذا من المطالعات والابحاث يُمهّد العذر لكاتبهِ في ما سها عنهُ او وهم فيهِ بعض الاحيان. فمن ذلك انّنا نرى فصلهُ في شعراء الجاهليّة قصيرًا غير مستوفى ضرب فيهِ صفحًا عن كثرين من الشعراء المجيدين كالمرقشَين وسلامة بن جندل والمثقب العبدي وغيرهم. وقد فضّل في هذا الفصل (ص ١٤) شعر طرفة على غيرهِ من الشعراء لما تتضمّن قصائدهُ من الحكم مع انّ للنابغة الذبياني وزهير